تاريخ الاستلام: 2022/11/01م   تاريخ القبول: 2022/12/07م   تاريخ النشر: 2022/12/31م

الأزهار في ديوان أوراق الخريف للشّاعر محمَّد الحلوي
(دراسة وصفيّة تحليليّة)

د. غالية المنتصر عليّ القمي
قسم اللغة العربيّة – كليّة التربية
جامعة الزّاوية
Email: g.alaimmi@zn.eduly

الملخَّص:

تضفي الأزهار ملمحاً جماليّاً في الشّعر، وتعدّ عنصراً مهمّاً من عناصر البناء الفنيّ في القصيدة، بما تحمله من مدلولاتٍ ذات علاقةٍ مباشرةٍ بالرؤية الفنيّة، ففي معظم الأحيان لا ترد الأزهار في معانيها المعروفة، بل تكشف عن إحساس الشّاعر، وخلجات نفسه؛ فهي مبعثٌ للحيويّة والنشاط والراحة والاطمئنان، ورمزٌ للمشاعر المختلفة من حزنٍ وسرورٍ؛ فالزَّهر من أهمّ ظواهر الطبيعة وأجملها، ومن أهمّ العناصر التي تشكّل الصّورة الفنيّة؛ لما تشتمل عليه من الدلالات الفنيّة والنفسيّة والاجتماعيّة والرّمزيّة، لذلك ينبغي دراسة الأزهار في الشّعر من خلال ربطها بسياق النّصّ الشّعريّ، فالسّياق الشعريّ هو الذي يحدّد وظيفتها وفاعليّتها، ويتناول هذا البحث دراسة الأزهار في ديوان أوراق الخريف للشاعر المغربيّ محمّد الحلوي، وذلك بالاعتماد على المنهج الوصفيّ التحليليّ في قراءة النّصّ، والتّعمّق في الدّلالة الموضوعيّة للأزهار، وعلاقاتها مع الأغراض الشّعريّة، وأبعادها الفنيّة، ورصد بعض الصّور البلاغيّة كالتّشبيه والاستعارة في ديوان أوراق الخريف.

الكلمات المفتاحيّة: الأزهار، ديوان أوراق الخريف، محمّد الحلوي

Flowers in the collection of Autumn Leaves by the poet Muhammad al-Hilawi

Ghaliyah Almuntasir Ali Alqimmi

College of Education, Al-Zawia

The department of Arabic language

Summary:

Flowers give an aesthetic feature to poetry and are an important element of the artistic construction of the poem, with the meanings they carry directly related to the artistic vision. It is a source of vitality, activity, comfort and reassurance, and a symbol of different feelings of sadness and pleasure. Flower is one of the most important and beautiful phenomena of nature, and one of the most important elements that make up the artistic image. What do you get from Technical, psychological, social and symbolic connotations. Therefore, flowers in poetry should be studied by linking them to the context of the poetic text, as it is the poetic context that determines their function and effectiveness. This research deals with the study of flowers in the collection of Autumn Leaves by the Moroccan poet Muhammad al-Hilawi.

Keywords: flowers, divan autumn leaves, Muhammad Al-Helwi

المقدّمـة:

سبحان من خلق الكون بجماله واعتداله، والصَّلاة والسّلام على سيّد الكائنات نبيّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وأتباعه الأخيار إلى يوم الدّين.

أمّا بعد:

فقد خاض الشّعر العربيّ بمختلف عصوره جميع الأغراض والموضوعات الشّعرية، ومن بين الموضوعات التي نالت حظّاً كبيراً على امتداد تاريخ الأدب العربيّ شعر الطبيعة بكل تفاصيلها وأوصافها، حيث ترك كثير من الشعراء بصمتهم الرّاسخة في هذا الميدان، وتُعَدّ الأزهار من أهمّ وأجمل تفاصيل الطبيعة، وقد قامت عليها العديد من الدّراسات النّقديّة التي تعنى بإبراز القيم الجماليّة في القصيدة الشّعريّة، من خلال تحليل عناصرها التشكيليّة، وفق الرؤية النقديّة المتكاملة لمناحي الجمال، مع اعتبار خصوصيّة كلّ عصر من

العصور، ومن خلال الأبعاد الحسيّة والتخيليّة التي تبدعها الذات الشّاعرة، ويستشف منها القارئ الكثير من المعاني المشحونة بالعواطف والانفعالات.

أهميّة البحث:

يُعَدّ الشاعر المغربيّ محمَّد الحلوي من الشّعراء الذين ولعوا بالطّبيعة بصفةٍ عامة، والأزهار بصفةٍ خاصّة، فوصل بين الأزهار وبين معظم أغراض الشّعر الأخرى، وجعل من الزّهور أنواراً يرجع إليها في صناعته الشعريّة؛ فربط بينها وبين رؤيته الخاصّة للحياة بما فيها من أفراحٍ وأحزانٍ وعظاتٍ وعبرٍ.

ومن هنا وجدت الرغبة في البحث عن الأزهار ودلالاتها في شعر الحلوي، ونظراً لغزارة المادة الشعريّة التي خلفها الشّاعر فقد وقع اختياري على ديوان واحد فقط من بين دواوين عدّة، وهو ديوان أوراق الخريف فصار عنوان الدّراسة (الأزهار في ديوان أوراق الخريف للشّاعر محمّد الحلوي، دراسة وصفيّة تحليليّة).

مشكلة البحث:

تتمثّل مشكلة البحث في وجود علاقة وطيدة بين الشّاعر محمّد الحلوي والأزهار، فهو يبثّها في معظم أغراضه الشّعريّة، لذلك يحاول البحث الكشف عن مواقعها، وبيان آثارها على المعاني الشّعريّة وجماليّاتها.

أهداف الدّراسة:

من الأهداف التي سعى البحث إلى تحقيقها: محاولة التّعرف على خصائص شعر الحلوي، وكيف وظّف الشّاعر الزّهور في قصائده، وإلى أيّ مدى يمكن أن تُسهم دراسة الأزهار في فهم مقاصد الشّاعر؟.

منهجيّة الدّراسة:

المنهج المتَّبع في هذه الدّراسة هو المنهج الوصفيّ التحليليّ الذي يقف على تشكيلات البناء العضويّ في شعر الأزهار، وتحليل عناصر الصّورة ومكوّناتها، وهو منهجٌ يسمح بالوصول إلى المضامين الجماليّة لتشكيلات الأزهار والتّعرف على جوانبها الإبداعيّة، والدّراسة تطبيقيّة تقف على التّشكيل الجماليّ في شعر الأزهار من جوانبه المختلفة.

المصادر والمراجع:

اعتمد البحث على مجموعةٍ من المصادر والمراجع، تنوّعت بين كتبٍ قديمة كلسان العرب لابن منظور، والقاموس المحيط للفيروز آبادي، ونظائرهما من الكتب اللغويّة القديمة، ومراجع حديثة مثل تاريخ الأدب العربيّ لشوقي ضيف، والشعر الوطنيّ المغربيّ في عهد الحماية لإبراهيم السولامي، وغيرهما من الكتب الأخرى التي لا يتّسع المقام لذكرها جميعاً.

بالإضافة إلى المدوّنة الرئيسة التي اعتمدت عليها الدّراسة وهي ديوان أوراق الخريف للشّاعر محمد الحلوي، وزارة الأوقاف، المملكة المغربيّة، ط 1، 1996م.

تقسيمات البحث:

اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى مقدّمة، ومحورين: المحور النّظريّ والمحور التطبيقيّ، وخاتمة ذكرت فيها النتائج المستخلصة التي وصل إليها البحث، ثمّ أنهيت الدّراسة بقائمة الهوامش مرتّبة حسب تسلسلها في متن البحث.

المحور النظريّ:

أوّلاً . التّعريف بالأزهار وحضورها في الشّعر العربيّ:

1 . تعريف الأزهار:

الزّهرة واحدة الزّهر، وأَزْهَرَ النّباتُ أو الشّجرُ: طلع زَهْرُهُ، وازْهَرَّ النّبات أو الشّجر: أزْهَرَ وكثر زهره.[1]

والزَّهرة نَور كلِّ نباتٍ، والجمع زَهْرٌ، وقد خصّ بعضهم به الأبيض، فزَهْرُ النّبت: نَوره، والزَّهرة البياض، عن يعقوب قال: أَزْهَرُ بيِّنُ الزُّهرةِ، وهو بياض عِتْق، قال شمر: الأزهر من الرّجال الأبيض العتيق البياض، النَّيِّرُ الحسنُ وهو أحسن البياض كأنَّ له بريقاً ونُوراً، يُزهر كما يُزهر النّجم والسّراج، وقال: ابن الأعرابيّ: النَّور الأبيض والزَّهر الأصفر؛ وذلك لأنّه يبيضُّ ثم يصفرُّ، وقد أزهرَ الشّجر والنّبات. والإزهار: إزهار النّبات وهو طلوع الزّهرة في النّبات، وقال أبو حنيفة: أزهر النَّبت، بالألف إذا نَوَّر وظهر زَهْره، وزَهِرَ بغير ألف إذا حسن، وازهارَّ النّبات، قال ابن سيده: وجعله ابن جنّي رباعيّاً، وشجرةٌ مُزْهِرَة ونباتٌ مُزْهِر، والزّاهِر: الحسن من النّبات، والزّاهِر: المشرق من ألوان الرّجال.

والجمع أزْهارٌ و جمع الجمع أزاهير[2]، وشاع في الاستعمال الحديث جمعها على زُهور، ويمكن أن تُجمع جمع مؤنّث سالماً قياسيّاً على زَهرات، ولكنّه غير شائع في الاستعمال.

وزَهْرَةُ الدّنيا وزَهَرَتها بهجتها ونضارتها وحسنها ومتاعها[3]، جاءت من جمال الزّهر وبياضه وحسنه، وقد زهر زهراً.

جاء في كتاب الله العزيز: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[4].

وأمّا عن الورد: فورد كلِّ شجرة: نَورها، قال أبو حنيفة: الورد نَور كلِّ شجرة وزهر كلّ نبتة، واحدته وَرْدة، قال: والورد في بلاد العرب كثيرٌ ريفيّ وبريّ وجبليّ، ووَرَّدَ الشَّجر: نَوَّرَ، ووَرَّدَتِ الشّجرة إذا خرج نورها، قال: الجوهريّ: الوَرد بالفتح، الذي يُشمّ، الواحدة وَرْدَة، وبلونه قيل للأسد وَرْدٌ، وللفرس وَرْدٌ وهو بين الكميت والأشقر. وقال ابن سيده: الورد لونٌ أحمر يضرب إلى صفرة حسنة في كلّ شيءٍ، فرسٌ وَرْدٌ، والجمع وُرْدٌ ووِرادٌ، وقال الزّجاج في قوله – تعالى –: ﴿ فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾[5]: أي صارت كلون الوَرد، وقيل: فكانت وردة كلون فرسٍ وَرْدَة، والورد يتلوَّن فيكون في الشّتاء خلاف لونه في الصَّيف، أراد أنّها تتلوَّن من الفزع الأكبر كما تتلوَّن الدِّهان المختلفة [6].

وقال الجوهريّ: والأنثى وَرْدَة والجمع وُرد بالضمّ، مثل جَون وجُون، ووِراد، وقميص مُورَّد: صبغ على لون الورد"[7].

ومن المجاز خدٌّ مُورَّدٌ، ويقال: "وَرَّدَتِ المرأةُ إذا(حمَّرتْ خدَّها) وعالجته بصبغ القطنة المصبوغة"[8].

نستخلص ممّا سبق أنَّ الزَّهر يعني النّور للنبات، كما يعني الحياة والحسن والبهجة والجمال لكلّ ما في الكون، وأمّا الورد فهو نَور كلّ شجرة وزهر كلّ نبتة وجدت على وجه الأرض، وأنَّ الحسن يظهر في كلِّ شيءٍ مزهَّر.

ويقال إنّ كلَّ وردة زهرة وليس كلُّ زهرةٍ وردة، حيث إنّ الاختلاف بينهما كبير، فالورود جميلة الشّكل لا تمتلك رائحة أو أنّ رائحتها لا تكون جذّابة كالزّهور، أمّا الزهور فهو اسمٌ شاملٌ للورود والزّهور معاً، وتتميّز االزّهور عن الورود بأنّها تستخدم في العلاجات المختلفة وعندما يتمّ تلقيحها تنتج ثمرة كما أنّ روائحها خلّابة مهما اختلفت أشكالها [9].

وتجتمع الزّهرة والوردة في معنى النّورة، وكثير من أنواع الزّهر وأشكال الورد متشابه حدّ التّماثل، وتبعاً لذلك استخدمت الزّهرة والوردة في معنًى واحدٍ، فبالرغم من أنّ الأزهار تظهر في معظم الأحيان أصغر من الورود، وأنّ أغلبها يعيش في البراري دون عنايةٍ بشريّةٍ، بخلاف الورد الذي يظهر أكبر حجماً، ويزرع في أماكن مخصّصة كالبيوت والحدائق العامة، وأنّ له أهميّة جماليّة ودلاليّة أعمق من الزّهر، بالرّغم من ذلك فإنّنا مازلنا نستخدم الزّهرة والوردة في معنًى واحدٍ.

2 . الأزهار في الشّعر العربيّ على مرّ العصور:

علاقة الإنسان بالأزهار والورود متأصّلة في أعماق التاريخ، وتمتدّ آثارها إلى الوقت الحاضر، فهي مترسّخة في مختلف تفاصيل حياة الإنسان، والتراث الإنسانيّ حافل بالقيم والدّلالات الجماليّة المستوحاة من الأزهار.

وعلاقة العرب بالأزهار والورود ليست وليدة اليوم، والتراث في مختلف العصور التاريخيّة مليء بتعبيرات متنوّعة تدلّ على عمق هذه العلاقة، فمختلف الفنون العربيّة تسجل حضوراً كبيراً للأزهار، إذ نجدها في الموروث الثقافيّ من الكتابات والأشعار في القديم والحديث، ونجدها في الأغاني والنّقوش والزخارف، ونجدها في الاحتفالات، كما نراها على قبور الموتى، إلى جانب وجودها في البراري وحدائق المنازل وشرفاتها، واليوم أصبحت تُباع في الأسواق وفي محال خاصّة بها.

ولا شكّ أنّ حضور الأزهار في الشّعر العربيّ كان حضوراً تدريجياً حيث بدأ قليلاً ثم تطوّر مع مرور الزّمن وتحوّل حياة الإنسان من مرحلة البداوة إلى مراحل أخرى متقدّمة.

فالشّعراء العرب في الجاهليّة كانوا يصفون كلّ شيءٍ تقع عليه أعينهم في صحرائهم، وفي العادة يذكرون ذلك بعد غزلهم وتشبيبهم، إذ يأخذون في وصف رحلاتهم فيها، فيتحدّثون عن قطعهم المفازات البعيدة فوق إبلهم ويسترسلون في وصفها وصفاً مسهباً بكلّ تفاصيلها، وكما أكثروا من ذكر الخصب ورطوبة النّبات ولدونة الأغصان، وكثرة الماء أكثروا من وصف الجدب، وطالما وصفوا مغامراتهم في الصّحراء، ومخاوفهم في لياليها من الجنّ والشياطين(10).

ومضى شعراء العصر الأمويّ على سنّة آبائهم يستلهمون صحراءهم مزاوجين على شاكلتها بين حبّ الطبيعة وحبّ المرأة، إذ يفتتح الشّاعر غالباً مطوّلاته بوصف أطلال الدّيار

التي قضى بها شبابه، ويسترسل في الحديث عن ذكريات حبِّه، ولا يلبث أن يتحدَّث عن رحلته في الصّحراء، وفي ثنايا ذلك يحدِّثنا عن كلّ ما وقعت عليه عينه فيها فخلّف أثراً في ذهنه من طيرٍ وحيوانٍ ونباتٍ في الأرض ونجومٍ وكواكبَ في السّماء[11].

وفي العصر العباسيّ الأوّل حاول بعض الشّعراء في مقدمات مدائحهم أن يترك الحديث عن الأطلال المهجورة إلى قصور الحاضرة المأنوسة، كما تحوَّل الشّاعر العباسيّ في كثيرٍ من الأحيان من وصف الصّحراء إلى وصف الرياض في الحاضرة ومناظرها الزّاهية البهيجة في الرّبيع[12].

وقد تبعهم في ذلك شعراء العصر العباسيّ الثاني، فكانوا يرمزون بالطبيعة إلى عهد الممدوح وجماله، وكرمه، وما شمل البلاد في زمنه من خصبٍ وامتدّ على صفحاتها من جنانٍ وعيونٍ وزروعٍ، كما كانوا يكثرون من وصف الربيع في تهنئاتهم بِعيد النيروز، وبذلك أخذ وصف الطّبيعة يستقلّ عن المديح ويصبح فناً قائماً بذاته له قصائده وأشعاره، وهي تعنى بوصف جميع الأنوار في الرّبيع[13].

"ففي القرن الرّابع بلغ وصف الطّبيعة ذروته في حلب وأصبحت مدارس الرّوضيات والزّهريات والثلجيّات والمائيّات في أوج إبداعها"[14].

حتى إنّ بعض الشّعراء كانوا يحاولون في كثيرٍ من قصائدهم إحصاء كلّ نَور وكلّ زهر من أبيض وأحمر وأصفر، فكانت مخيّلة الشّاعر في ذلك الوقت تشبه آلة تصوير دقيقة.

وغلب ذلك على الشّعر لنجد ابن قتيبة يدعو إلى نبذ وصف البساتين والرّياحين والعودة إلى وصف الفيافي وأزهارها ونباتاتها، وهكذا تحوَّلت العناية بالحياة الحضريّة إلى فتنة شديدة بجمال الرّياض والبساتين خلبت ألباب الشّعراء وملأت عليهم حواسهم وملكت قلوبهم[15].

أمّا الأندلس فقد تميَّزت بطبيعة فاتنة في سهولها ووديانها وأنهارها وجبالها وغاباتها وأشجارها وأزهارها وبساتينها ومنتزهاتها، وهي طبيعة خلبت ألباب الشّعراء هناك فتغنّوا بمفاتنها ومشاهدها دائما باثّين فيها عواطفهم ومشاعرهم، وممّا زادهم شغفاً بها تردّدهم على المنتزهات والحدائق المحيطة ببلدانهم، فكثرت أشعارهم في الطّبيعة والأزهار، وممّا يدلّ على ذلك أنّ كثيراً منهم يردّون على ابن الروميّ تفضيله النّرجس على الورد[16].

وقد "أكثروا من وصفهم لزهرةٍ بعينها كما فعل شعراء الطبيعة في حلب فوصفوا الورد والنّرجس والشقائق والنيلوفر والياسمين والقرنفل واللّوز وغيرها ممّا وقعت عليه عيونهم"(17).

وقد كانت الطبيعة برموزها المختلفة وبمناظرها وأشيائها متحرّكةً وجامدةً موضوعاً يطرقه شعراء العصر الحديث ويلجأون إليه فتفتح صدرها لهم، وتستقبلهم، وتعطف عليهم فتغدو أكثر لغة وطواعية، فيهيلون عليها من الأوصاف والنّعوت، ويقدمون لها الصّور المتنوّعة، فهي بالنسبة إليهم سرّ الجمال ومستودع الفتنة(18).

وكما حضرت الأزهار في القصيدة العربيّة القديمة حضرت أيضاً في القصيدة الحديثة، بسبب دلالاتها الجماليّة التشكيليّة لاسيّما حسن الألوان وتعدّدها، وبسبب الدّلالة المعنويّة كذلك من مثل البراءة، والنّقاء، والرقّة، وغير ذلك من الدلالات المتعدّدة التي يمكن للشّاعر ابتكارها من خلال إسقاط ما في وجدانه من معانٍ وصور على جماليّات الأزهار.

كانت هذه إطلالة سريعة على حضور الطبيعة والأزهار في الشّعر العربيّ قديمه وحديثه، وقد سقنا هذه المقدّمة للتأكيد على أهميّة الأزهار من ناحية وعلى تطوّر دلالاتها الجماليّة والفنيّة عبر العصور من ناحية أخرى.

ومن خلال ما سبق نرى أنّ الشّعراء الأوائل قد عبروا عن الطّبيعة من خلال البيئة البدويّة وأوصافها، وعندما انتقل الشّعراء إلى المدن وعرفوا الحضارة ونعيم الحياة وترف القصور وجمال الرّياض، وعطر الأزهار أتوا بشعرٍ جديدٍ في المعنى والأسلوب يناسب البيئة وطبيعتها المتغيّرة.

ثانياً . التّعريف بالشّاعر محمّد الحلوي، وديوانه (أوراق الخريف):

1 . التّعريف بالشّاعر:

محمّد عبد الرّحمن الحلوي، شاعرٌ من شعراء المغرب الأقصى، وُلد بمدينة فاس بالمغرب سنة 1922م، وتربّى في أسرةٍ عرفت بالفضل والصلاح فوجّهته إلى المسجد والكتّاب، وتخرّج في جامعة القرويّين مُجَازاً في اللّغة العربيّة وعلومها سنة 1947م، عمل مدرساً بالمرحلة الثانويّة، والمدرسة العليا للأساتذة، ومفتشاً للتعليم الثانويّ ثم أُحيل إلى المعاش سنة 1973م(19).

بدأ تجربته الشّعريّة في العقد الثاني من عمره، عايش خلال شبابه صراع السّلفيّة ضدّ الانحراف الدينيّ، والصّراع السّياسيّ ضدّ الاستعمار، وكان يعبّر عن رأيه بالحرف والكلمة ما جرّه إلى السّجون ومعتقلات التعذيب[20] حتى صار واحداً من أبرز شعراء المغرب منذ الحرب العالميّة الثانية، وقد كانت قصائده الوطنيّة من أكثر القصائد ذيوعاً واستحساناً عند الوطنيّين وعامّة أفراد الشعب، وتعترف الأمة العربيّة بشاعريّته المتميّزة، وتضعه في موقعه اللائق بين أقطاب الأدب والشّعر في العالم العربيّ والإسلاميّ، وغنيٌّ عن البيان أنّ الشاعر الحلوي ذو معرفةٍ دقيقةٍ وباعٍ واسعٍ في علم النّحو والصّرف واللّغة والأدب وعلوم البلاغة[21].

وكان من الشعراء الكلاسيكيّين الذين حافظوا على النّظام الإيقاعيّ التقليديّ للقصيدة العربيّة، فقد ظلّ وفيّاً له حتّى وفاته، ولم يتأثر بدعوات التّحرّر من النّمط الإيقاعيّ التقليديّ التي كانت سائدةً في القرن العشرين[22].

ويعدّ الشاعر محمّد الحلوي من الشّعراء الذين رفعوا رأس المغرب عالياً في محافل الأدب وأندية الشّعر، وجاوزت شهرتهم حدود بلادهم لتدوّي أسماؤهم شرقاً وغرباً، ولتُستجاد قصائدهم وتُستعذب أساليبهم، وليُستشهد بروائعهم ويُثنى على قرائحهم، ولتُضرب بهم الأمثلة في الالتزام والأصالة والإبداع والابتكار، واكب هذا الشّاعر الحركة الوطنيّة، وشهد النّهضة العلميّة والأدبيّة في العهد الحسينيّ، فكان من أبرز الشّعراء الذين حفلت دواوينهم ببطولات الأمّة وانتصاراتها وإلى غير ذلك من المقاصد السّامية التي تناولها الشّاعر الحلوي في أشعاره[23]، كما نال محمّد الحلوي جوائز العرش الأوّل في الأعياد الوطنيّة، والجائزة الأولى في عكاظيّة الحبيب بورقيبة 1980م، وجوائز وزارة الأوقاف، ووسام الشّرف الأكبر من الأكاديميّة الملكيّة العسكريّة، وكأس لسان الدّين الخطيب في الشّعر 1989م، وجائزة الإبداع الشعريّ من مؤسسة عبد العزيز بن سعود البابطين للإبداع الشعريّ 1990م، كما كتب عنه أبو شادي، وأديب المكاوي، وعبد الكريم غلاب، وأغلب شعره كان مقصوراً على مجلّة(دعوة الحقّ) وجريدة(العلم)"[24].

أمّا شعره فيأخذ بالألباب ويؤثّر في النّفوس لروعة أسلوبه وسحر بيانه وإشراقة معانيه، ولِما يفيض به وجدانه وتجيش به عاطفته، وتجود به قريحته من دُرَرٍ شعريّةٍ فريدةٍ،

ورغم كثرة شعره وتشعّب أغراضه، وتعدّد بحوره وقوافيه، فإنّ لكلّ قصيدةٍ من قصائده رونقاً يطبعها، وجمالاً يميّزها[25].

من دواوينه الشّعريّة (أنغام وأصداء) ط 1965م، و(أنوال) ط 1986م و(شموع) ط 1988م، و(أوراق الخريف) ط 1996م، ومن مؤلّفاته (معجم الفصحى في العاميّة المغربيّة).

توفّي الشّاعر المغربيّ محمّد الحلوي في يوم 24 ديسمبر سنة 2004م، عن سنٍّ تقارب 82 عاماً[26].

2 . ديوان أوراق الخريف:

صدرت الطّبعة الأولى للدّيوان سنة 1996م، عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة بالمملكة المغربيّة.

وقد وصف الدّكتور عبد الكبير العلوي المدغري ديوان أوراق الخريف بأنّه ديوانٌ نفيسٌ جمع فيه الشّاعر ما يناهز مائة وعشرين قصيدة في مختلف الأغراض، التي تدلّ على سعة اطّلاعه وسلامة ذوقه وعلى علمه بالشّعر وفنونه وأساليبه وأسرار بلاغته وعناصر جماله[27].

قسَّم الشاعر محمّد الحلوي ديوانه [محلّ الدراسة] إلى سبعة أبواب رئيسة هي: الدّينيّات، والطبيعيّات، والوطنيّات، والقوميّات، والمختلفات، والمراثي، والإخوانيّات، يحتوي كلّ باب منها على مجموعةٍ لا بأس بها من القصائد المعنونة بمسمَّيات مختلفة كلٌّ حسب موضوعها ومقاصدها الشعريّة.

3 . الأزهار في ديوان أوراق الخريف:

تطوّر موضوع الطبيعة في الشّعر كما أسلفنا وذلك "نتيجة للانقلاب الحضاريّ الذي أحدث حياةً متطورةً وقد تناول الشعراء وصف الرّياض والفصول وأولوا الرّبيع عناية خاصة في أشعارهم ,وترتّب على وصفهم الطّبيعة اهتمام كثير منهم بالأزهار والورود وإعطاؤها مكانة كبيرة "[28].

ولا شكّ أنّ طبيعة المغرب الأقصى "لوحة لا تستطيع ريشة أعظم فنانٍ في العالم أن ترسم مثالاً لها غير أنّ الشعراء من الجيل الجديد حاولوا أن يحكوا في شعرهم الوصفيّ بعض مظاهره"[29]

ويبرز الرّبيع والأزهار في مقدّمة ما تضمنّته أشعارهم من لوحات نابضة بالحياة والحركة، والمتصفّح لدواوين الشّعراء المغاربة يجدها رياضاً مليئةً بالأزهار التي وظّفوها في معظم أغراضهم الشّعريّة، اقتداءً بمن سبقهم من الشّعراء لاسيّما شعراء الطّبيعة الأندلسيّة المجاورة.

وفي بحثنا هذا نحاول تفحّص مدى تأثّر الشّاعر محمَّد الحلوي بالأزهار، من خلال استعراض موضوعات شعره، وعدم الاكتفاء بجانب الوصف فقط بل في معظم الأغراض، لنعرف ما يميِّز طبيعة الأزهار في شعره.

لقد انتشرت الطّبيعة في جميع دواوين الشّاعر الحلوي، كما كان للأزهار حضورٌ متناثرٌ بين ثناياها، لاسيّما في ديوان أوراق الخريف، فقد استدعى الشاعر تلك الرّموز وبثّ فيها رؤاه وأفكاره مثبتاً قدرة فائقة على تمثّل أبعادها الدلاليّة والتخيليّة والجماليّة، فحوّلها إلى مركز إشعاعات إيحائيّة أغنت القصيدة وعمّقت المعنى، وجعلت المتلقّي يندفع وراء التّأويل والتّحليل.

فمن يتفحّص ديوان أوراق الخريف يلاحظ عناية الشّاعر محمَّد الحلوي الكبيرة بالأزهار، حيث نجدها في معظم موضوعات شعره كالوصف والمدح والغزل والرّثاء، الأمر الذي يبرز خصوصيّته الشّعرية وتجربته من خلال عنايته بها، فهي ولا شكّ تبثّ في روحه أحاسيس ومشاعر فيّاضة يترجمها إلى كلماتٍ وأشعارٍ.

المحور التطبيقيّ:

أوّلاً ـ الأزهار تحمل معانيها الأولى المعروفة:

حملت بعض مفردات الأزهار في ديوان أوراق الخريف معانيها الأولى المعروفة في عالم الطبيعة، دون تغييرٍ أو تبديلٍ، فلم يتجاوز بها الشّاعر في مقطوعاتها الوصف والمعنى الخارجيّ، فلم ينقل الزّهرة إلى معادلٍ موضوعيٍّ في تشكيلٍ وحضورٍ معنويٍّ متعمّقٍ، لكن مثل هذا التوظيف قليل في الدّيوان بالمقارنة مع التوظيف الدّلاليّ الواسع، وهذا أمرٌ طبيعيّ أنتجه التطوّر، فالشّعر القديم وإنِ اعتنى بالطبيعة فإنّ اعتناءه لا يرقى إلى مستوى الطّريقة التي يتفاعل بها الشعر الحديث معها، "فالشّعر العربيّ لم يكن يحتفل بالطّبيعة هذا الاحتفال،

وهو وإن كان قد وصف جوانب شتّى من محاسنها، ولا سيّما الرّبيع والأزهار، فقد بقى عليه أن يجلوها وحدةً كاملةً وجزءاً لا يتجزأ، وهذا ما فعله الشّعر المعاصر "[30].

ويمثّل هذا النّوع شعر الأزهار التي وردت بمعانيها المباشرة في ديوان الشّاعر الحلوي، وأهمّها مجموعة من القصائد التي تحمل اسم الرّبيع، وتنفرد بوصف روابيه وأزهاره وأنواره، بالإضافة إلى بعض الأبيات المتناثرة في داخل القصائد، ومن أجمل القصائد الرّبيعيّة قصيدة (ربيع بلادي) وفيها يقول الشّاعر:

وَافى الرّبِيعُ وَأشْرَقَت أنْوارُهُ ... وَافْتَرّ فِي خُضْرِ الرّبَى نُوَّارُهُ

وَشَدَت بَلَابِلُهُ عَلَى أفْنَانِهَا ... فَتَرَاقَصَت مِن شَدْوِهَا أشْجَارُهُ

وَسَرَى عَبِيرُ الزّهْرِ بَيْنَ خَمَائِلٍ ... نَشْوَى فَطَابَتْ بالشَذَا أسْحَارُهُ

وَجَرَتْ جَداوِلُهُ لُجَيْناً ذَابَ فِيـ ... ـهِ مَعَ الأصِيلِ جُمَانُهُ وَنُضَارُهُ

وَمَبَاسِمُ الأزْهَارِ يَغْشَاهَا النّدَى ... سِحَراً وَتَرْشُفُ ثَغْرَهَا أطْيَارُهُ

حَامَ الفَرَاشُ عَلَى كُؤُوسِ رَحِيقِهَا ... ثَمِلاً فَزَادَ أُوامُه وَخُمَارُهُ[31]

رسم الشّاعر لوحةً حسيّةً حركيّةً لونيّةً تشخيصيّةً جميلةً، صوّرها بعين فنانٍ ماهرٍ ترصد عيناه كلَّ ما يدور حوله بأدقّ التفاصيل، من بداية الرّبيع وإشراقة الأنوار وسط الرّوابي الخضراء، إلى شدو البلابل، وتراقص الأشجار، والعبير السّاري بين الخمائل وهي به نشوى، والجداول تجري، والأطيار ترشف الأزهار، والفراش يحوم على كؤوس الرّحيق ثملاً مخموراً.

لا شكّ أنّ للشاعر ولعاً بالتوحّد مع الطبيعة، والرّوض والزّهر، وهذا هو الجوّ الذي يرى فيه الشّاعر أجمل الأوقات، ومن منّا لا تروقه الخضرة والألوان الزّاهية؟!.

ويقول في قصيدة (ابن بطوطة):

يَا حُسْنَ يَوْمِ عَادَ فِيهِ كَأنّهُ ... لَيْثٌ يَعُودُ إلَى حِمَى أدْغَالِه!

نَثَرُوا الزُّهُورَ عَلَيْهِ إكْراماً لَهُ ... كَمُقَاتِلٍ قَدْ عَادَ بَعْدَ قِتَالِهِ[32]

والمقصود هنا الرّحالة المغربيّ محمّد بن عبد الله اللواتي الطنجيّ المعروف بابن بطوطة، الذي بدأ رحلته في رجب عام 725هـ، وانتهت بوصوله إلى مدينة فاس في أواخر ذي الحجّة عام 754 هـ، وقد استغرقت تسعاً وعشرين سنةً ونصف، زار فيها كلّ بلاد العالم المعروفة في عصره[33].

وقد وصف الشّاعر يوم عودته من رحلاته وأشاد ببطولاته، وشبَّهه باللّيث عند عودته إلى أدغاله، فهو ذو هيبةٍ ومكانةٍ تميّزه بين الحيوانات، وكذلك ابن بطوطة، عندما عاد وأثبت هيبته بين النّاس، وقد استقبلوه بالأفراح والزّهور وكأنّه جنديٌّ شجاعٌ عاد من المعارك، وجاء استخدام الشّاعر للزهور هنا في معانيها الطبيعيّة، ونثرها دليلٌ على الأفراح والبشائر بعودة المنتظر.

وقال في قصيدة (النّازح):

أيْنَ مِنْ عَيْنِيكَ أطْيَافُ العَشَايَا فِي السّوَانِي؟

وَثُغَاءُ الشّاء أحْلَى مِن رَصِيد الإصْبَهَانِ!

وَالرُّبَى عِطْرٌ وَحِنَّاءٌ وَزَهْرٌ أرْجُوانِـي!(34)

يصوّر الشّاعر حسرة النّازح وشوقه، وقد خرج من دياره مرغماً على تركها ناجياً بحياته من الأخطار، وكأنّ الشّاعر في مقارنةٍ بين حال النّازح قبل النزوح، وحاله بعد النّزوح، فهو يصف ما يعانيه من حاجةٍ وشوقٍ للعودة إلى حياة الرّاحة والاستقرار التي كان يعيشها في بلدته الآمنة، فيذكّره بنزهاته المسائيّة في السّواني، وسماعه لأصوات الشياه التي هي عنده أجمل من كلّ الأغاني، والربا من حوله يزدان بالعطر والحنّاء والزهور الأرجوانيّة الحمراء الجذابة، والغرض هو بيان مدى المعاناة التي يحسّها النّازح، وحثّه على العودة والكفاح.

ثانياً . الأزهار معادلاً للشّعر:

تنوّعت المضامين الشّعريّة في ديوان أوراق الخريف وتشكّلت بحسب انفعال وتفاعل الشّاعر بها، فمن نزعة ذاتيّة إلى أخرى دينيّة، ومن نبرة وطنيّة إلى أخرى قوميّة، ومن نفحة اجتماعيّة إلى أخرى إنسانيّة شاملة، تنوّعت على إثرها لغة القصيدة التي استمدّت عناصرها من حقولٍ معجميّةٍ مختلفةٍ.

وهذا إن دلَّ على شيءٍ فإنّما يدلّ على سعة اطّلاع الشاعر وسلامة ذوقه وعلى علمه بالشّعر، وفنونه، وأساليبه، وأسرار بلاغته، وعناصر جماله(35).

ومن خلال العنوان السّابق سأحاول معرفة العلاقة التي يعقدها الشّاعر محمَّد الحلوي بين رؤيته للشّعر وبين الأزهار؛ وكيف استطاع الشّاعر ربط نظرته إلى الشّعر ومصادقتها وتأكيدها بالأزهار؟

يقول الشّاعر في قصيدة:(في رياض ابن زيدون)

إشْبِيلْيَا تَاهَت عَلَى أَخَوَاتِهَا   بِأَبِي الوَلِيدِ مَتيّماً مَبْهُوراً
ذَابَتْ عَلَى شَفَتَيْهِ آهَاتُ الهَوَى   شِعْراً كَأزْهَارِ الرّبِيعِ نَضِيرَا
حَلَّى بِهِ جِيدَ الزَّمَانِ وَعَاشَ فِي   فِرْدَوْسِهِ قَيْسَ الهَوَى المَشْهُورا
رَقَّت غَلَائِلُ شِعْرِهِ فَكَأنّهَا   أنْفَاسُ رَوْضٍ جِئتَهُ مَمْطُورَا[36]

أبو الوليد بن زيدون صاحب منثورٍ ومنظومٍ، وخاتمة شعراء مخزوم، وسع البيان نظماً ونثراً؛ فرع أدبه وجاد شعره وعلا شأنه، وأطلق لسانه، لم يخلف الدّهر مثله جمالاً وبياناً وبراعة ولساناً، وظرفاً، وحلولاً من مراتب البلاغة نظماً ونثراً.

أحبَّ ولادة بنت الخليفة عبد الرّحمن الناصريّ، وهام بها عشقاً، وكانت في نساء أهل زمانها واحدة أقرانها مشهورة بالصّيانة والعفاف، ولها مع أبي الوليد بن زيدون أخبارٌ طوالٌ وقصارٌ، يصعب إحصاؤها، وقد ذكرها في معظم أشعاره[37].

والشاعر هنا يشيد بمكانة ابن زيدون الشعريّة حتّى يصوّر إشبيليا وقد افتخرت بأبي الوليد وأشعاره على سائر البلدان، وخاصة الغزليّة منها وقد صوَّرها وهي تذوب على شفتيه ممزوجة بآهات الهوى، وكأنّها أزهار الرّبيع عند تفتّحها في النّظارة والجمال.

والزمان يتزيّن بهذا الشعر، وكأنّه عقد فريد من نوعه، وهذا الشّعر في جماله ورقّته يحاكي شعر الشّاعر العربيّ العاشق المشهور قيس بن الملوّح، ثمّ يعود ويشبِّه هذا الشّعر في رقّته وجماله برائحة الرّياض عند سقوط المطر، وقد حشد الشّاعر العديد من الصور الفنيّة في هذه الأبيات فأتى بالتّشبيه والتّشخيص والاستعارة والكناية؛ كلّ ذلك ليبيّن مكانة ذلك الشّعر.

ويقول الحلوي في قصيدة (رفيق الشّعر) تحيّةً إلى الشّاعر عليّ الصقليّ:

فَيَالَكَ مُطْرِباً كَـمْ! أمْتَعْتنِي   مَزَاهِرُهُ وَأُرغُنُهُ البَدِيعُ!
عَرَائِسُكَ الزُّهُورُ تَفُوحُ عِطْراً   وَشِعْرُكَ فِي نَضَارَتِهِ رَبِيعُ[38]

جعل الشّاعر من الصقليّ مطرباً، ينتشي كلُّ من يستمع إلى أشعاره، وهي تشبه في رقّتها وعذوبتها، مزاهر مليئة بالزّهور الجميلة، والعطر يفوح منها فكأنّ شعره لوحة من لوحات الرّبيع الزاهرة.

ويقول في قصيدة (قلب كبير) متوجِّهاً بكلامه إلى الأديب محمَّد العربي الشّاوش:

يَغُوصُ عَلَى دُرِّ المَعَانِي وَيَنْتَشِي بِهَا وَيُجِيدُ الرَّأيَ فِيهَا وَلَا يُطْرِي
وَمَا كُلُّ مَنْ رَصَّ القَوَافِي بِشَاعِرٍ وَمَا كُلُّ زَهْرٍ فِي الرِّيَاضِ بِذِي نَشْرِ !(39)

يتحدَّث الشّاعر بلغة الأديب النّاقد العارف بالأشعار ومسالكها، حيث يرى أنَّ هذا الشّاعر متمكنٌ من صنعته، ينتقي ألفاظه انتقاءً جيّداً يناسب المعاني التي يريدها، ولا يجيد الإطراء الكاذب الذي ينتهجه بعض الشّعراء للتكسّب بأشعارهم.

فالشّعر في رأيه فنٌّ وذوقٌ، فليس كلّ من يجمع القوافي بشاعرٍ، كما أنّ الأزهار في الرّياض بعضها يفوح بروائح عطرة تنعش القلوب وبعضها الآخر يخلو من الرّائحة، فلا يمتلك إلّا جمال المظهر الخارجيّ، وبهذه المقارنة يجعل الحلوي من الشّعر معادلاً لأزهار الرّياض مع التّأكيد على اختلاف أنواعها.

ثالثاً . الأزهار من خلال الوصف:

"الشّعر إلّا أقلّه راجع إلى باب الوصف، ولا سبيل في حصره واستقصائه ... والنّاس يتفاضلون في الأوصاف، كما يتفاضلون في سائر الأصناف: فمنهم من يُجيد وصف شيءٍ ولا يجيد وصف آخر، ومنهم من يجيد الأوصاف كلّها، وإن غلبت عليه الإجادة في بعضها"(40).

وقد أصبح للوصف صلة مباشرة بالأزهار في عصرنا الحاضر – كما سبق أن ذكرنا – فالشّعراء أبدعوا في وصفها والحديث عنها، وعرضوا حبّهم لها بقصائد ومقطعات جميلة، كما استخدموها معادلاً لما تعجب به أنفسهم من الموجودات فقدّموا لوحاتٍ فنيّةً رائعةً تتجلّى فيها الألوان الفاتنة والأشكال الخلّابة، وتفوح منها الرّوائح العطرة.

ولشاعرنا بعض من الشّذرات في هذا المجال، ومن ذلك قوله في قصيدة (الأمّ):

أَطَلَّ عَلَى دُنْيَاهُ فِي بَسْمَةِ الفَجْرِ وَضِيءَ المُحَيَّا كَالنَّدَى وَشَذَا الزَّهْرِ(41)

الشّاعر هنا يصف مولوداً جديداً خرج على الدّنيا مع بشائر الفجر، يشعّ الضّياء من ملامحه، وكأنّه اشتقّ هيأته من لمعة النّدى، وتعطّر بعبير الأزهار، فكما أنّ ولادة الإنسان تشبه قطرات النّدى عند إشراقة الصّباح، فإنّ ولادة الطفل تعبِّر عن بداية حياته

وكذلك قطرات النّدى تعبّر عن بداية يومٍ جديدٍ، والمقصود هنا إظهار الجمال والبراءة في محيّاه.

ويقول في قصيدة (فاس):

**مَا هَبَّ رِيحُ صبَا إلّا وَذَكَّرَنِي		نَسَائِماً عَبَقَتْ مِنْ طِيبِ رَيّاكِ**
**وَلَا رَأَيْتُ زُهُوراً فِي خَمَائِلِهَا		إلّا ذَكَرْتُ رَبِيعاً مِنْ مَزَايَاكِ**
**كَسَا رُبَاكِ فَرَادِيساً وَأرْدِيَةً		حَلّاكِ مِن زَهْرِهَا الزّاهِي وَوَشّاكِ**(42)

هذا النّوع من الشّعر يطلق عليه وصف المدن، وتجربة المدينة في شعرنا العربيّ تعود بنا حتماً إلى البدايات الأولى؛ ذلك لأنّ موقف شعرائنا المعاصرين ورؤيتهم لها تنهل – بالضّرورة – من رؤية أسلافهم لها، وتسبح في فضائها، حتّى غدت من أبرز الظّواهر التي يمكن أن نلمسها بيسرٍ في الخطابات الشّعرية العربيّة المعاصرة بصفةٍ عامّة، وفي الخطاب الشّعريّ المغربيّ بصفة خاصّةٍ(43).

والحلوي يذكر في أبياته السّابقة مدينة فاس المغربيّة، مسقط رأسه، ويصف روعة جمال طبيعتها الذي لا ينسى، فكلّما هبّت ريح الصّبا أحسّ كأنّها تحمل نسائم فاس المعطَّرة برائحة الأزهار والرّياحين، وكلّما رأى الشاعر زهوراً جميلة متفتّحة في روابيها تذكَّر ما تمتاز به فاس من غيرها من المدن الأخرى، وقد صوّر هذه المزايا وكأنَّها ربيعٌ زاهرٌ.

ثم يصفها في طلعتها البهيّة فروابيها تكتسي بأرديةٍ جميلةٍ فكأنَّها من الفردوس، وما يزيدها حلاوة أنّها تظهر موشَّاةً بالأزهار ذات الألوان البرّاقة الزاهية فهي موطنٌ للخير والجمال.

وفي قصيدة(وافد الخير) جاء بصورةٍ دقيقةٍ في قوله:

**رَأيْتُ فِيكَ بُيُوتَ اللهِ مُسْرَجَةً		حُشُودُهَا زُمَرٌ تَسْعَى إلَى زُمَرِ!**
**كَأنَّهَا النّحْلُ تَشْدُو فِي خَلِيّتِهَا		ضَمْأى تَنَقّلُ مِن زَهرٍ إلَى زَهَرِ!**
**وَاللهُ أكْبَرُ فِي أعْلَى مَآذِنِهَا		مَلِيئَةٌ بِمَعَانِي الهَدْيِ والعِبَرِ**
**تَفِيضُ ألْسُنُهَا بِالذّكْرِ خَاشِعَةً		وَتَنْتَشِي مِن شَذَا قُرْآنِهَا العَطِرِ**(44)

يشبّه الشّاعر امتلاء المساجد في شهر رمضان بالمسلمين سعياً منهم لنيل رضوان الله – عزّ وجلّ– بمجاميع النّحل مزدحمةً في داخل الخليّة تُصدر أصواتاً تشبه الغناء، ثمّ يمثّلهم في سعيهم للعبادة بحركتها وهي تروح وتجيء سريعاً كأنّها ظمأى تبحث عن الماء

فتنتقل بين الأزهار المتناثرة، وقد فاضت ألسنتهم بالذّكر بين صلاةٍ ودعاءٍ وقراءةٍ للقرآن في نشوةٍ وكأنّها تتعطّر برائحة طيّبة منبعثة من البخور أو الورود، تزداد وتنتشر حتّى تملأ أرجاء المكان، وفي هذا كناية عن عظمة وقوّة وجلالة الموصوف وسعة انتشاره.

رابعاً . الأزهار من خلال المدح:

المدح من الأغراض الرئيسة في الشّعر العربيّ منذ القدم، وقد "نشأ من إشادتهم بأبطالهم وقبائلهم حين تحقّق نصراً أو تأتي بعملٍ عظيمٍ، كما كانوا يمدحون سادتهم لما يقومون به من أعمال مجيدة...، ثم تحوّل إلى حرفةٍ يتّخذها الشّعراء وسيلةً فرديّةً للتكسّب والعيش داخل قبائلهم"[45].

وخير المدح ما يشيد فيه الشّاعر بالصّفات الإنسانيّة الحسنة لممدوحه، وقد اختصرها قدامة بن جعفر بقوله: "لمّا كانت فضائل النّاس من حيث هم ناس، لا هم من طريق ما هم مشتركون فيه من سائر الحيوانات، على ما عليه أهل الألباب من الاتّفاق في ذلك؛ إنّما هي العقل والعفّة والعدل والشّجاعة، كان القاصد بهذه الأربعة مُصيباً، وبما سواها مُخطئاً"[46].

والشّاعر القديم يصف ممدوحه بالقوّة والصّلابة التي تتلاءم مع طبيعته الصّحراويّة القاسية، ولكن ما طرأ على المجتمع العربيّ من تطوّرٍ متمثّلٍ في لين الحضارة ورقّتها جعل الشّاعر يتواءم مع الطبيعة ويربط بين جمالها وصفات ممدوحه، فيسقط من صفات الطبيعة على ممدوحه فيصف أخلاقه بالأزهار وبالورد في الرّبيع، وأنَّ خصاله تقوم مقام النَّور في الرّياض وعبيرها.

والمدح في ديوان أوراق الخريف قليلٌ لا يوجد تحت عنوانٍ بارزٍ مستقلٍّ مقارنةً بالأغراض الأخرى، وإنّما نجده موزّعاً في بعض القصائد متداخِلاً مع أغراضٍ أخرى، وقد أضفى الشاعر الحلوي من خلاله على ممدوحيه صفات خاصّة، وصوّر جمالهم، ومكارمهم الخُلقيّة، في لوحات من الزّهور والورود تعبق بأشذائها.

يقول الحلوي في قصيدة(نبيّ الهدى) يمدح الرّسول – صلوات الله وسلامه عليه:

حَلَّ كَالْغَيْثِ بَعْدَ أحْقَابِ جَدْبٍ ... وَبَـدَا كَالأنْـوَارِ فِـي الظّلْمَـاءِ

وَالشّذَا فِي الرّياضِ وَالمَاء تنْسَا ... بُ رَقِيقـاً إِلَـى شِفَـاهِ الظّمَـاءِ[47]

ثم يقول:

وَكَأنَّ الوُجُودَ عَادَ رَبِيعاً وَوُرُوداً فَوَّاحَةَ الأشْذَاء[48]

ولو تتبّعنا مسيرة المدائح النبويّة منذ القرن السّابع لا نكاد نلتقي بشاعرٍ في شرق العالم الإسلاميّ وغربه إلّا له فيها مشاركة، وقد انتشرت المدائح النبويّة بكثرةٍ غامرةٍ في القرن التاسع في المغرب والأندلس، وازداد إقبال الشّعراء عليها في العصور التالية، فليس من الغريب أن تظلّ شخصيّة الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم – ملهمةً للشّعراء حتّى اليوم، فهي لم تكن مجرّد ابتهالات ومناجيات، وإنّما كانت توظّف أيضاً في تصوير واقع المسلمين، والاهتمام بقضاياهم والدّعوة إلى إصلاح احوالهم"[49].

والشّاعر الحلوي يتناول في البيتين الأوّل والثّاني المدح النبويّ من جانب بشائر النّبوة، وما جلبته من الخير على العالم بأسره، فقد شبَّهه بالغيث بعد الجدب، وبالأنوار في ظلمات اللّيل، وفي هذا كناية عمّا سبقه من الظلم والطغيان، فكان كالشّذا في الرّياض المزهِرة، وكالماء وهو ينساب على شفاه الظمأى، وهكذا ولَّدتْ هذه الكناية بلاغةً تضفي على المعنى حُسناً وبهاءً وعرضت الصّورة وفي طيها برهانها.

وفي البيت الثّالث يصوّر هذا الحدث، وقد جعل من الوجود ربيعاً مليئاً بالورود الفوّاحة التي تعطِّر الكون، والمقصود هي الفائدة التي عمَّت على جميع المسلمين.

يقول الحلوي في قصيدة(تحيّة) في عيد تكريم الأستاذ محمَّد الفاسي:

وَمَا المُكرَّمُ إلا مِنْ أزَاهِرِهَا غَرْسٌ زَكَا فَزَكَا كَالوَالِدِ الوَلَدُ![50]

يمدح الشّاعر الأستاذ محمَّد الفاسي في البيت السّابق، فيشيد بحسن خلقه وشمائله، التي هي نتاج الأصل الطيّب وحسن التّربية، وقد تناقلها عن والده وجدّه، وقد غُرست في نفسه بعنايةٍ فنمت وأزهرت.

وفي قصيدة(أَعِدْ ذكرَه) يمدح الحلوي الشّاعر علّال الفاسي داعية الإصلاح، وزعيم حركات التحرّر في المغرب العربيّ فيقول:

أعِد ذِكْرَهُ! فَهْوَ الصَّدَى يَتَجَدَّدُ وَعُمْرٌ لَهُ فِي مُلْتَقَى الحُبِّ يُولَدُ

وَعَطِّرْ بِهِ أجْوَاءَنَا فَهْوَ كَالشَّذَا وَنَوِّرْ بِهِ ظَلْمَاءَنَا فَهْوَ فَرْقَدُ![51]

يستحقّ الفاسي في نظر الشّاعر وغيره أن يُعاد ذكره ويتجدّد في كلّ محفلٍ، تكريماً له وتخليداً، فهو يجب أن يظلّ قدوةً للمقتدين من بعده، فسيرته كعطر الورد تفوح في كلّ مكانٍ، وعلمه وفكره كالنّجم الذي ينوّر الظّلمات.

خامساً . الأزهار من خلال الغزل:

"الغزل: هو إلف النّساء والتخلّق بما يوافقهن"[52]، ويتّخذ الشّعراء من الرّياض ورياحينها الطبيعيّة سبيلاً للحديث عن جمال حبيباتهم، وطيب رائحتهن، وهي امتدادٌ لصورة الطّبيعة عند الشّاعر الجاهليّ، ففي العصر الجاهليّ زخر هذا الجانب بالحبّ والحزن والحنين، وقد ورثته الأجيال جيلاً عن جيلٍ إذ ظلّ شعراء العصور الموالية يترسّمون خطى الشّاعر الجاهليّ الذي كان يستمدّ أوصافه من الطبيعة المحيطة به، فظلّت أصداء الصّحراء ملهمةً لهم[53].

ورغم انتقال العرب من البداوة إلى الحضارة، ومعرفتهم بنعيم الحياة وجمال الرّياض والأزهار وعطورها، وتطوّر شعر الطبيعة فإنّهم حافظوا على صورة التّراث التقليديّة، محاولين تطويرها وتجديدها لكي تظهر في صورةٍ مواكبةٍ لواقعهم الحضريّ.

ويحذو الشّاعر الحلوي في غزله العذريّ حذو القدامى فيذكرنا بالشّعر العربيّ في العصر العباسيّ والأندلسيّ، مع بعض اللّمحات المتعمِّقة قليلاً في حنايا النّفس.

ومن خلال قصيدة (بحر عينيك) نلاحظ أنّ صدر الشّاعر تضاعف فيه الحزن من كلِّ جانب، فهو لسبب ما لم يستطع الإفصاح عن حبِّه فيقول:

مَـازَالَ يَكْتُمُ حَتَّـى سَـالَ مَدْمَعُـهُ   كَالزَّهْرِ يَفْضَحُهُ فِي رَوْضِهِ العَبَقُ![54]

ولا شكّ أنّ من صفات التزهّد واستعذاب الألم أنّ المحبّ في الغالب لا يفصح إلّا إذا عانى حرمانا نفسيّاً سببه تعذّر وصل الحبيب[55]، وذلك ما حدث مع شاعرنا في بيته السّابق حيث ظلّ يكتم مشاعره وآلامه من جرّاء هجر الحبيب في أعماق نفسه، حتّى وصل إلى وضعٍ لم يعد يستطيع فيه أن يتحمّل من الهجر والصّبر ما لا يطيق، وعندها فضحته دموع الألم والحسرة، ودلّت على مكامن نفسه كما تدلّ الرّوائح العبقة على أماكن الزَّهر كأنّها تفضح وجوده بين الخمائل.

إنَّه غزلٌ عذريٌّ يتحدّث عن الحبّ العنيف العفيف وعمّا يلاقيه المحبّ من عذابٍ وما يعانيه من تباريح، ويعبِّر في صدقٍ عن أنّات قلب المحبِّ الواله وما يلاقيه من آلامٍ وأوجاعٍ[56].

ويقول محمَّد الحلوي في قصيدة (رسالة):

يَا مُشْبِهَ الـوَرْدِ أنْسَامـاً وَأنْفَاسَا

وَأنْبَلَ النّاسِ أخْلَاقـاً وَإحْسَاسَـا

أهْدَيْتِنَي الوَرْدَ مَعْصُوراً فَذَكَّرَنِي

خَمَائِلَ الوَرْدِ والأزْهَارِ فِي فَاسَا![57]

في الأبيات السّابقة استحضار للحبيبة تشترك فيه الألوان والعطور، وقد تداخلت فيها روعة الطبيعة بروعة الجمال الإنسانيّ في لوحةٍ باهرةٍ، حيث يشبّه الشّاعر الحبيبة بالورد في أنسامه وأنفاسه الزكيّة، فهي أنبل النّاس طيباً وإحساساً، وقد أهدته الورد معصوراً وممزوجاً بالحبّ حتّى جعلته يتذكّر خمائل الورد والأزهار التي كان يتمتّع برؤيتها في مدينة فاس الجميلة، وقد اتّخذ الشّاعر من الحبّ وسيلةً لتحقيق الفرح والسّعادة.

وفي قصيدة(حنين) يجعل الشّاعر حبيبته شقيقةً للورد تتعطّر بروائح طيّبة كعبير الورد وأشذائه، يصف روحها بالنّقاء والطُّهر، وكأنّها ملاك منزّل من السّماء، ثمّ يؤكّد على عمق حبِّها في نفسه عندما يضعها في أعلى منزله بقلبه، لا ترقى لمستواها منزلة أخرى، وفي هذا كناية عن الجمال وطيب الرائحة، ونقاء الرّوح، يقول:

يَا شَقِيقَ الوَرْدِ فِي أشْذَائِهِ　　　　وَنَقِيَّ الرُّوحِ فِي شِبْهِ مَلَكْ!

لَيْسَ فِي قَلْبِي لِشَيْءٍ مَنْزِلٌ　　　　قَدْ يُسَاوِي فِي عُلَاهُ مَنْزِلَكْ[58]

نلاحظ من خلال العرض السّابق أنّ الأزهار قد غمرت فضاء الشّاعر حتّى انصهرت بجمالها في جمال عشيقته.

سادساً ـ الأزهار من خلال الرّثاء:

"هذا الفنّ من موضوعات الأدب العربيّ قديمه وحديثه، وهو الفنّ الذي يُشيد بمناقب الموتى، ويُظهر مجدهم وكرمهم ووفاءهم، ويتحسَّر عليه بأحرّ الدّموع وأصدق المشاعر"[59] "وليس بين الرّثاء والمدح فرقٌ؛ إلّا أنّه يُخلطُ بالرّثاء شيءٌ يدلُّ على أنّ المقصودَ به ميّتٌ "[60] وقد كان لهذا الغرض أيضاً نصيبٌ من الأزهار، حيث وظَّفها الشّعراء في الرّثاء للتّعبير عن مآثر الموتى، وهذا ما فعله شاعرنا محمّد الحلوي مع الأحباب والرّفقاء ونظرائه من الشّعراء والأدباء.

وقد كتب الشّاعر قصيدة (منارة نضال) تكريماً للمجاهد أحمد بلا فريج، بعبارات تنمّ عن كثيرٍ من الأسى والأسف بحتميّة الموت مهما كانت مكانة الميّت، يقول:

سَلُوا عَنْهُ المَدَارِسَ مَنْ أبُوهَا وَمَنْ بَلَغَتْ بِهِمَّتِـهِ مَقَامَـا؟
وَمَنْ رَبَّى وَكَانَ لِمَنْ تَرَبَّـى أَباً بَرًّاً عَلَى يَدِهِ اسْتَقَامَـا؟
بِرَوْضٍ كَمْ تَفَتَّحَ عَنْ زُهُـورٍ وَكَمْ بَـدْرٍ بِـهِ بَلَـغَ التَّمَامَـا![61]

فهو أبو المدارس، العالم المعلِّم القدير صاحب الهمّة والمقام العالي، وهو المربِّي الفاضل، والأب البرّ لكلّ من تعلّم على يده وسار على طريق الاستقامة، فعلمه وأدبه كان كالرّوض المتفتّح بمختلف الزّهور علماً وحكمة، وتلامذته كالبدور في طور نشأتها وتمامها.

ويقول الحلوي في قصيدة (وداعاً أيُّها الرّفيق) موجَّهة إلى روح رفيق العمر الوفيّ محمَّد الإدريسي:

جُلْتُ فِي رَوْضِهِ وَقَدْ خَيَّمَ الصَّمْـ ـتُ عَلَيْهِ وَغَاصَ فِـي الأَشْجَـانِ
وَرَأَيْتُ الـوُرُودَ فِيهِ بِـلَا عِطْـ ـرٍ وَبَاقَاتِـهَـا بِـلَا أَلْـوَانِ[62]

يفصح الشّاعر في هذين البيتين عن تفجّعه وحزنه على فراق رفيقه الذي وافته المنيّة، ويصوِّر ما أنتجه صاحبه من أشعارٍ كأنّها روضة متنوّعة الأشجار والأزهار والألوان، كانت مفعمةً بالحركة والنّشاط، وحين مات وشعر بالحزن عليه، صوَّر نفسه وكأنَّه يجول في تلك الرّوضة، ولكنّها لم تعد كما كانت مع وجود صاحبها، فقد خيَّم الصّمت عليها وأخرستها الأحزان، ثمّ يتفحّص الورد فيها، فيجده من دون عطرٍ، وباقاته بلا ألوانٍ، فهي حزينةٌ على فراق صاحبها، وقد أسقط حزنه على هذه الرّوضة فجعلها تشبه الأموات.

كما يقول في قصيدة (موت شاعر):

سَتُنْسَى مِثْلَمَا نُسِيَتْ رُمُوزٌ وَتَبْلَـى ذِكْرَيَاتُ العَبْقَرِي!
كَمَا تَبْلَى زُهُورٌ فِي رِيَاضٍ وَتَفْنَـى نَفْحَةُ العِطْرِ الزَّكِي![63]

يخاطب الشّاعر مرثيّه بلهجةٍ مليئةٍ بالحزن والأسف كأنّه يخاطب نفسه، فهو أيضاً شاعرٌ وسيموت حتماً، وربما يُنسى مثلما نُسي من كان قبله من رموز الشّعر والأدب العباقرة، تماماً كما تبلى الزّهور في الرّياض، وتتلاشى عطورها الزّكيّة.

وهكذا وجد محمّد الحلوي في أزهار الرّياض مُعيناً يستعين به في رثائه، ومتنفَّساً يكشف به عمّا يحسّ به من الحزن والأسى.

كما وُفِّق الشّاعر في وصف أزهاره بصفةٍ عامّة، واستطاع التّعبير من خلالها عن مختلف أغراضه الشّعريّة، ومقاصده الفنيّة، بلغةٍ تتراوح بين التّصريح والتّلميح، لتحقيق أقصى غايات التأثير في متلقّيها.

الخاتمة:

من خلال عرضي لهذا البحث توصّلت إلى النّتائج التّالية:

- إنّ الطّبيعة كانت ملهمة الشّاعر في الإبداع، ومن جوانب إبداعه توظيفه أزهارها في التّعبير عن أحاسيسه ومشاعره، وهو الأمر الذي مثَّلَ بذرة هذا البحث.
- جاءت مفردة الزَّهْرة حاملةً معانيها الأولى المعروفة، وكان هذا التّوظيف قليلاً مقارنةً لها بالتوظيف الدَّلاليّ الواسع.
- لا يوجد وصفٌ دقيقٌ للزّهور والورود في الدّيوان، إذ يكتفي الشّاعر بالإشارة إلى الزّهر أو الورد، أو بذكر أحد أوصافه كالعّبير والشّذا.
- خرجت بعض ألفاظ الأزهار في الدّيوان عن طبيعتها إلى معانٍ إنجازيّةٍ غير مباشرة بحسب المقام الذي وردت فيه.
- حظيت جميع الأغراض الشعريّة في ديوان الحلوي بنصيبٍ وافرٍ من الأزهار، كلٌّ حسب متطلّبات المعاني والدّلالات التي يرمي إليها الشّاعر.
- ربط الشّاعر بين الأزهار وبين رؤيته للشِّعر.
- الزّهور والورود معادلٌ رمزيٌّ للمرأة والحبيبة.
- اشتراك الزّهر والورد في الحزن والرّثاء.
- اتّخذ الشّاعر من الأزهار وسيلةً لإبراز القيم والمبادئ الأخلاقيّة العالية، وأوصاف القوّة والشجاعة، وتعظيم بعض الشّعائر الدينيّة.
- تعدّد أنماط التّصوير الفنيّ واستخدام الأساليب البيانيّة والصّور الشّعريّة المختلفة، كالتشبيه والاستعارة والتّشخيص والكناية.

قائمة الهوامش:

ـ القرآن الكريم بالرّسم العثمانيّ، رواية حفص عن عاصم، دار المنار للنّشر والتّوزيع، القاهرة، مصر.

1 . المعجم الوجيز، مجمع اللّغة العربيّة، مطابع الدّار الهندسيّة، مصر، ط 1، 1980م، ص 294، والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربيّة، مطابع الدار الهندسيّة، ط 3، 1985م، ج 1، ص 418.

2. ينظر لسان العرب، أبو الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرم بن منظور الإفريقيّ المصريّ، دار صادر، بيروت، لبنان، ط 1، 1997م، ج 6، مادة/ زهر، والمحكم والمحيط الأعظم في اللّغة، عليّ بن إسماعيل ابن سيده، تحقيق عبد السّتار أحمد فراج، مطبعة البابي الحلبي مصر، ط1، 1968م مادة/ زهر.

3 . القاموس المحيط، مجد الدّين بن يعقوب الفيروز آبادي، مؤسسة الحلبي وشركائه للنّشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط 8، 2005م، ج 2، ص43.

4 . سورة طه، الآية، 131 .

5 . سورة الرّحمن، الآية 37.

6 . لسان العرب، أبو الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرم بن منظور الإفريقيّ المصريّ، مصدر سابق، ج 15، مادة/ ورد.

7 . الصّحاح وتاج اللّغة وصحاح العربيّة، إسماعيل بن حمّاد الجوهريّ، ترجمة حمد عبد الغفور عطار، دار الكتاب العربيّ، مصر، لات، مادة/ ورد.

8 . تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، ترجمة عبد الستار فراج، لات، مادة / ورد.

9 . ينظر عالم الزّهور لغة واحدة لكّل البشر، حازم عوض، وكالة الصحافة العربيّة، الجيزة، مصر، ط 1، 2017 م، ص 12.

10 . ينظر تاريخ الأدب العربيّ (العصر الجاهليّ)، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط 24، د ت، ص 214. 217.

11 . ينظر المصدر السابق (العصر الإسلاميّ)، ص 386.

12 . ينظر نفسه،(العصر العباسيّ الأوّل)، ص 164، 165 .

13 . ينظر نفسه،(العصر العباسيّ الثاني)، ص 232. 234.

14 . الأدب الأندلسيّ موضوعاته وفنونه، مصطفى الشّكعة، دار الملايين، بيروت، ط 10،2000م، ص 251 .

15 . ينظر تاريخ الأدب العربيّ، شوقي ضيف(العصر العباسيّ الثاني، مصدر سابق، ص 232 ،234.

16 . المصدر السّابق،(عصر الدول والإمارات الأندلس)، ص 293، 294.

17 . الأدب الأندلسيّ موضوعاته وفنونه، مصطفى الشّكعة، مصدر سابق، ص 277.

18 . ينظر في الأدب العربيّ الحديث، سالم المعوش، منشورات الجامعة المفتوحة، طرابلس، ليبيا، ط 1، 1993م، ص 290، 291.

19- ينظر معجم الشّعراء من العصر الجاهليّ حتى سنة 2002م، كامل سلمان جاسم الجبوري، دار الكتب العلميّة للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2003، ج 5، ص 90.

20 . نفسه، ص90.

21 . ديوان أوراق الخريف، محمّد الحلوي، وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلاميّة، المملكة المغربيّة، ط 1، 1996م، ص 5.

22 . الشّعر الوطنيّ المغربيّ في عهد الحماية 1912م . 1956م، إبراهيم السولامي، دار الثقافة، ط 1، 1974م، ص 234.

23 . ديوان أوراق الخريف، محمّد الحلوي، مصدر سابق، ص 6.

24 . معجم الشّعراء من العصر الجاهليّ حتى سنة 2002م، كامل سلمان جاسم الجبوري، مصدر سابق، ج 5، ص 91.

25 . ديوان أوراق الخريف، محمّد الحلوي، مصدر سابق، ص 5.

26 . الشعر الوطنيّ المغربي في عهد الحماية 1912م – 1956م، إبراهيم السولامي، مصدر سابق، ص 234.

27 . ديوان أوراق الخريف، محمّد الحلوي، مصدر سابق، ص 5.

28 . معالم الحضارة العربيّة في القرن الثالث الهجريّ، أحمد محمّد عبد الباقي، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، لبنان، ط 1، 1991م، ص 337.

29 . أحاديث عن الأدب المغربيّ الحديث، عبد الله كنون، مطبعة النّجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط 4، 1984م، ص164.

30 . المصدر السابق، ص 163.

31 . ديوان أوراق الخريف، محمّد الحلوي، مصدر سابق، ص 95.

32 . المصدر السابق، ص 284.
33 . ينظر رحلة ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق محمّد عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، ط 1، 1987م، ج 1، ص 15 . 20.
34 . ديوان أوراق الخريف، محمّد الحلوي، مصدر سابق، ص 339.
35 . المصدر السّابق، ص 6.
36 . نفسه، ص 105.
37 . ينظر الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، أبو الحسن عليّ بن بسام الشنتريني، تحقيق إحسان عبّاس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، د ط، 1997م، ص 336، 430 .
38 . ديوان أوراق الخريف، محمّد الحلوي، مصدر سابق، ص 429.
39 . المصدر السابق، ص 428 .
40 . العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيروانيّ، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط 5، 1981م، ج 1، ص 294، 295.
41 . ديوان أوراق الخريف، محمّد الحلوي، مصدر سابق، ص 303.
42 . المصدر السابق، ص 133.
43 . ينظر دلالة المدينة في الخطاب الشعريّ العربيّ المعاصر، قادة عقاق، منشورات اتّحاد الكتاب العربيّ، دمشق، سوريا، ط 1، 2001م، ص173 .
44 . ديوان أوراق الخريف، محمّد الحلوي، مصدر سابق، ص 86.
45 . في أدب ما قبل الإسلام، محمّد عثمان عليّ، دار الأوزاعي، بيروت، لبنان، ط 3، 1986م، ص 118.
46 . العمدة، في محاسن الشّعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيروانيّ، مصدر سابق، ج 2، ص 130.
47 . ديوان أوراق الخريف، محمّد الحلوي، مصدر سابق، ص 22.
48 . المصدر السّابق، ص 23.
49 . ينظر المدائح النبويّة، محمود عليّ مكي، الشركة العالمية للنشر لونجمان، القاهرة، مصر، ط 1، 1991م، ص 132، 141 ،

50 . ديوان أوراق الخريف، محمّد الحلوي، مصدر سابق، ص 200.

51 . المصدر السّابق، ص 368.

52 . العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيروانيّ، مصدر سابق، ج 2، ص 117.

53 . ينظر في الوصف وتطوّره في الشعر العربيّ، إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبنانيّ، بيروت، لبنان، ط 1، 1959م، ص130 .

54 . ديوان أوراق الخريف، محمّد الحلوي، مصدر سابق، ص 415.

55 . ينظر الحياة العاطفيّة بين العذريّة والصوفيّة، محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر للطبع، لات، القاهرة، ط 2، د ت، ص 18.

56 . ينظر ليلى والمجنون في الأدبين العربيّ والفارسيّ، محمد غنيمي هلال، دار العودة، بيروت، لبنان، ط 2، 1980م، ص 17.

57 . ديوان أوراق الخريف، محمّد الحلوي، مصدر سابق، ص 417.

58 . المصدر السابق، ص 408.

59 . مذكّرات في الأدب العباسيّ وتاريخه، أمين إبراهيم شحادة، منشورات الجامعة المفتوحة، طرابلس، ليبيا، ط 1، 1991م، ص60 .

60 . العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيروانيّ، مصدر سابق، ج 2، ص147 .

61 . ديوان أوراق الخريف، محمّد الحلوي، مصدر سابق، ص 378.

62 . المصدر السابق، ص 386، 387.

63 . نفسه، ص 399.